

أهمية الأبحاث الأثرية في إثبات الهوية

د.السعيد شلالقه: جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي : الجزائر

الملخص: تشكل الآثار المتنوعة جزءا هاما من الذات التاريخية ، حيث تعتبر موروث الأمة التي تتجسد فيها هويتها و شخصيتها الحضارية ، لذا وجب فهمها و المحافظة عليها قصد الدفاع عن هويتنا و رفض التشكيك فيها .

الكلمات المفتاحية: الآثار - التاريخية - هويتنا - الحضارية - فهمها - الدفاع - رفض

The importance of archaeological research in proving identity

Abstract:

The diverse effects form an important part of the historical self, as it is considered the heritage of the nation, which embodies its identity and its cultural character, so it must be understood and maintained in order to defend our identity and refuse to question it.

Key words: : archaeological, proving identity.

مقدمة:

يبني الصرح الحضاري للأمم بوجود المرجعية التاريخية و إدراك ذاتها الحضارية التي تمثل القاعدة الرئيسية الصلبة و الجدار الحصين و العمود الثابت المحافظ على هوية الأمة عبر عصورها التاريخية . و من بين المسائل الكبرى المطروحة للجدل بين الكثير من أفراد مجتمعنا اليوم إشكالية هويتنا ، و يعود ذلك إلى إهمال الرصيد التاريخي الحضاري للأمة بقصد أو بدون قصد ، و تخلي أغلبية أفراد المجتمع عن مطالعة و فهم المخزون الحضاري المتنوع و كذلك نكران البعض للذات التاريخية أو الاستهزاء به نتيجة جهل أصحابها لرصيد الحضاري الطويل .

و أمام المد و الجزر الخطير الذي يهدف إلى التشكيك في هويتنا التاريخية و الحضارية حاولت في هذه المداخلة المتواضعة تتبّع أولى سمات هوية الأمة الجزائرية بدءا من عصورها القديمة التي أولى مراحلها عصور ما قبل التاريخ و هي الأطول زمنيا ، و ذلك انطلاقا من المصادر الأثرية المعبرة عن حقيقة وجود هذه الذات منذ العصور السحيقة قدم وجود الكون و الانسان . و الإشكالية الأساسية هي : فيم تتمثل القيمة التاريخية و الحضارية للأبحاث الأثرية ؟ و لفهم تلك أطرح التساؤلات الآتية :

1 - ما المقصود بالمصادر الأثرية ؟

2 - ما معنى الهوية ؟

3 - فيم تتمثل أهم الأبحاث و الدراسات التاريخية ؟

4 - أين تكمن العلاقة بين الآثار و الهوية ؟

1 - المصادر الأثرية : يعتمد الباحث في دراسة الحضارة على المصادر الأثرية ، حيث تعتبر الآثار القديمة المصدر الرئيسي في معرفة السمات الأولى للحضارة التي انتجها القدماء ، كما تبرز أهم المظاهر الحضارية القديمة المختلفة . حيث تعد آثارهم المنقوشة أو المكتوبة ، المصدر الرئيسي الذي يجد فيه الباحث أصدق العناصر وأغناها التي تعينه على تتبع خطوات الحضارة منذ أقدم العصور التاريخية وبداية نضجها وتكوينها . وتعد تلك الآثار وذلك التراث المصدر الوحيد الذي أشركه القدامى عن قصد أو غير قصد في الكشف عن تاريخ حضارتهم و تخليدها و تشمل هذه الآثار مختلف الانجازات القديمة¹. و المصادر القديمة الواردة منقوشة ومكتوبة على الآثار من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة كتبت لغرض معين في وقت معين².

و المصادر الأثرية هي ما خلفه الإنسان القديم ، و تتضمن أساسا ما تركته الجماعات في عصورها التاريخية القديمة من آثار معمارية كبقايا المعابد السود و الأسوار ، و ما عثر عليه من آثار منقولة متنوعة لأدوات الاستعمال اليومي و أدوات الرسم والنحت و النقش في مناطق عديدة . و الآثار هي التاريخ الحي لأهلها ، أو الشاهد الصادق على حضارة أصحابها³ ، و المادة الأثرية المصدر الاساسي في معرفة السمات الحضارية الأولى في عصورها القديمة حيث أشركها أهل المنطقة في انشطتهم المختلفة .

2 - المقصود بالهوية : يعد مصطلح الهوية من الموضوعات التي حظيت بالكثير من الدراسات و الأبحاث الإنسانية و الاجتماعية ، و رغم الجهود المبذولة لم تتوج بمفهوم موحد بين العلماء و المختصين ، حيث نجد العديد من المفاهيم ، منها :

1 - الهوية لغة : الهوية مأخوذة من "هُوَ .. هُوَ" بمعنى أنها جوهر الشيء ، فهوية الإنسان أو الثقافة .. أو الحضارة ، هي جوهرها و حقيقتها⁴.

2 - الهوية اصطلاحا :

التعريف الأول : هي مجموعة الخصائص النفسية و الجسدية و المعرفية التي تميز ذاتا محددة عن الأخرى . و هي مركب ينمو مع تعزيز ثقافة الأفراد و توسيع آفاقهم التاريخية و الفكرية و الثقافية و الإنسانية التي تعزز وعيهم بأمتهم و انتمائهم إليها ، و هذا الانتماء هو الذي يعطي للهوية معنى التمايز الذي تقوم على أساسه تفاعلات ثقافية أساسية التي لا يمكن لها أن تنمو دون وجود خصوصيات ثقافية متعلقة بجماعة معينة أو مجتمع معين⁵ .

التعريف الثاني : - الهوية كائن حي يولد و ينمو .. هي صيرورة في الزمن ، و تطور في الفعل و تبدل في المواقع ، و تحول في الدور . هي حركة ديناميكية مستمرة لا تتوقف... وبهذا المفهوم فهي ميراث ومكتسبات ، كلما اتسعت دائرة الهوية زادت قابليتها للتوسع و التعدد ، فدائرة الأمة أكثر الدوائر تنوعا و اختلافا ، لأنها تشكل ذاكرة تاريخية تعبر عنها وتعبر عن إرادة جماعية نسجت خيوطها تلك العناصر الثقافية والحضارية التي شكلت نسبا روحيا مقدسا يتجلى في حب الوطن و الدفاع عنه⁶ .

و ثابته الهوية تتجدد لا تتغير ، تتجلى وتفسح عن ذاتها ، دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة ، إن هوية أية أمة هي صفاتها التي تميزها من باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية ، و

الهوية دائما جماع ثلاثة عناصر : العقيدة التي توفر رؤية للوجود ، و اللسان الذي يجري التعبير به ، و التراث الثقافي الطويل المدى ⁷ .

و قد حدد مفهوم الهوية على أساسين اثنين هما :

- الأساس الفردي : يعتمد أساسا على المميزات الجسدية التي تميز كل كائن بشري عن الآخر كبصمات الأصابع التي تثبت هذا الاختلاف علميا .

- الأساس الجماعي : يقصد به الهوية الوطنية أو قومية و غير ذلك ، و هي مجموعة الصفات و السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى أمة من الأمم ، و التي تجعلهم يعرفون و يتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى ⁸ .

3 - الأبحاث و الدراسات التاريخية : نشطت الحركة الاستكشافية الأجنبية خاصة البعثات الفرنسية منذ القرن

التاسع عشر ، حيث قدمت الابحاث و الدراسات نتائج مختلفة تبرز التاريخ الحضاري للمناطق الصحراوية ، و ما تحويه تلك الآثار من الرسوم و النقوش الصخرية الكثيرة و أطلق أهل المنطقة على الصخور المنقوشة اسم " الحجرات المكتوبة " ⁹ . و من أبرز الباحثين اذكر على سبيل المثال لا للحصر :

- الفرنسي " كوفينياك و الألماني ه . بارث و غيرهم من المهتمين بدراسة الرسوم الصخرية بالصحراء الجزائرية . و من المناطق التي ألت اهتماما في الدراسة الميدانية منطقة الأطلسي الصحراوي و الطاسيلي و الهوقار و الصحراء الوسطى كرسوم وادي جرات . أما عن الإطار الزمني الأقدم الذي يمكن أن يعطى للرسوم الصخرية فهناك فرضيات منها :

- الباحث ج . فلانند : هو الألف السادس قبل الميلاد وفي رأيه بأن العمق التاريخي لتلك الأعمال بحيث أنها لا تتجاوز العصر الحجري الحديث .

لوث . ه " الألماني " : يذهب إلى أن الرسوم الطبيعية التذكارية بوادي جرات التاسيلي لا يزيد تاريخها عن الألف السادس قبل الميلاد إن لم يكن سابقا له .

- صولنيك : أن الرسوم الصخرية الأولى تعود إلى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى .

- بروي . ه " الألماني " : يوافق رأي صولنيك حيث يرى أن الرسوم الصخرية بالصحراء تعود إلى نهاية العصر الحجري القديم الأعلى و بالذات إلى الحضارة القفصية العليا .

- فروري : يرى أن الكثير من الرسوم الصخرية القديمة ذات الأسلوب الطبيعي و الحجم الكبير هي من المظاهر الأولى للعصر الحجري الحديث " النيوليتي " ¹⁰ .

- كامبس . ج : يرى من خلال أبحاثه يجعل الرسوم الصخرية ذات الأسلوب الطبيعي و الصور

الكبيرة الحجم بأنها تعود إلى فترة واحدة من الزمن ¹¹ .

- جاكو . ف : في 24 افريل 1847 م ، درس صخرة مذهلة عليها إشارات غريبة ، و تمكن من اكتشاف الصخور المنقوشة بتيوت (7 كلم عن عين الصفراء) ، أحدى أقدم التعاير المرئية للإنسان في المنطقة و الأولى من نوعها على مستوى شمال إفريقيا .

- هاسي . ه : درس نقوش " تيوت و المحيصرات " و اهتم الدكتور . ج ب . فلامند بمحطات " البريج ، صفيصيفة ، عين القطيطير " و طبع 20 إصدارا حول المحطات الجديدة في الجنوب الوهراني ¹² .

4 - العلاقة بين الآثار و الهوية : تتجلى تلك العلاقة في الخطوات التاريخية الأولى التي جسدها أفراد المنطقة ، و مدى استثمارهم للوسائل الطبيعية المتاحة في بيئتهم للتعبير عن أفكارهم المتنوعة وإبراز ذاتهم والإقرار بوجود شخصيتهم المتميزة عن الكثير من الشعوب التي عاصرتهم . حيث تؤكد الآثار أن السكان من الشعوب القديمة القاطنة هناك و التعمير البشري العريق بالصحراء الجزائرية ، كما تعبر عن فترة تاريخية و حضارية أساسية من حياتهم العامة ، و هو إثبات تاريخي لهوية المنطقة و ردا صريحا على المشككين فيها .

كما تجسد مدى تطور الجانب الفكري للسكان ، و البيئة المحيطة بهم ، و معرفة المناخ المعتدل و الرطب بالمنطقة الصحراوية . و هذه النقوش تعبر على جانب من الحياة اليومية حيث سجلت مشاهد للصيد و المحاربون يحملون أقواسا و نساء يضعن أسورة على سواعدهن و ترسم لنا بعض أشخاص يحملون أحزمة عريضة رؤوسهم مزخرفة بالريش ، و لبعض الآخر شعره ثلاثي الشكل . و بعض الأشخاص تم نقشهم جنباً أو جالسين ، والبعض يملك سلاحا للإيحاء على مشاهد صيدا ، أو في حالة تضرع و قيامهم بطقوس دينية .

و نلاحظ أن الجزء الأكبر من النقوش و الرسوم هذه أنجز قبل أعمال الحضارة السومارية و أقدم الأهرامات المصرية ، و قال الأثري ه . لوت : أن نقوش الجنوب الوهراني من بين أقدم التظاهرات الفنية و الطقوسية ¹³ .

بالإضافة إلى كونها كتابة تصويرية لفترة سابقة للتاريخ تعرفنا على الجوانب الدينية و التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتبعها سكان المناطق التي وجدت فيها تلك النقوش و ذلك من خلال أعمالهم الفنية التي تركوها ، و من ناحية أخرى تترجم أوجه الأنشطة التي كان يسايرها الإنسان الصحراوي القديم في حياته ، و مدى التنوع الثقافي في المشاهد و النقوش و الرسوم الصحراوية المختلفة ¹⁴ .

كما توضح العلاقة المتشابهة بين عدة مناطق متباعدة من حيث التوزيع الجغرافي ، غير أن مواضيعها تكاد تكون واحدة مثل : صورة الكيش الذي يحمل بين قرنيه دائرة تشير إلى قرص الشمس في كل من اللوحات

المصرية " واحة سيوة " التي عرفت بواحة آمون ، حيث نجد موضوع عبادة الكباش يكاد يكون واحدا من الواحات المصرية و المواقع الصحراوية الشرقية الجزائرية كمنطقة أفلو و الأغواط . كما وجدت رسوم القوارب العالقة على بعض صخور جبال الطاسيلي ، و لعل ذلك يدل على وضعية المنطقة المناخية التي كانت متوفرة حينذاك والتي تشهد عليها بقايا الوديان الجافة المتوفرة بالمنطقة حتى وقتنا هذا . و نفهم من الرقصات الطقوسية و تسريحات الشعر و اللباس الذي كان يرتديه الإنسان ، و رسم الأيدي والأرجل بهدف طرد الأرواح الشريرة التي كان يتصورها الإنسان حينذاك تطارده في كل مكان . و يربط اختيار الموضوع بالظروف التي كان يعيشها الإنسان آنذاك من صيد إلى مستأنس للحيوانات و مدجن للزراعة و محارب بغية حب البقاء ¹⁵ .

و تبرز لنا الرسوم و النقوش المنتشرة عبر صحرائنا أن المنطقة كانت زاخرة بالإمكانات الطبيعية (المناخ الرطب و المياه الوفيرة خاصة المترتبة على كميات التساقط ، و الغطاء النباتي الوفير و الكثيف في ربوع الصحراء ، إضافة إلى كثرة الأنهار و الأودية و البحيرات ، و كذلك الثروة الحيوانية المتنوعة ، و المواد المعدنية) المساعدة للاستقرار البشري و المشجعة على الرقي الحضاري المنجز بها ، الأمر الذي يؤكد الاستمرارية التاريخية للمنطقة الصحراوية كمصدر هام للكثير من المعارف الحضارية و موردا للثروات الطبيعية منذ عصورها القديمة . و هذه الخاصية المميزة متوفرة وقتنا الحاضر ، و هي امتداد للإمكانات الحضارية الكثيرة للمناطق الصحراوية منذ عصورها التاريخية الموعلة في التاريخ القديم ¹⁶ .

الخاتمة : تمثل الآثار صفحات صادقة التعبير عن العصور الحضارية في العصور القديمة و من النتائج هذه الورقة البحثية اذكر:

1 - تحقيق ثورة مبكرة في حياة الإنسان القديم ، حيث غير نمط كسب غذائه ، بدل التنقل الكثير و الغير آمن ، إلى حياة مستقرة و منتجة للغذاء الزراعي ، و مبتكرا لصناعات أكثر تطورا و مبدع ثقافي ، و تأسيس للقرى ، ثم ظهور المدن و بروز الفن العمراني . مما يدفعني لقول : " أن الثورة التي حدثت في العصر النيوليثي لم تكن منفصلة تماما على كل المظاهر الحضارية السابقة بل سايرت بعضها لفترة معينة أو تأثرت بها و أخذت بعض ملامحها أحيانا ، و استمرت في التطور الجذري أكثر عبر الزمن .

2 - شهدت الصحراء الجزائرية نهضة حضارية و ليدة التطور الفكري للإنسان أو نتيجة ظروف طبيعية محيطة به أو بدافع الحاجة الضرورية ، و ربما تكون العوامل مجتمعة و مشتركة فيما بينها . و هذه القفزة الحضارية البارزة بسبب جهود الإنسان الذي عاش تلك الفترة التاريخية ثم تفاعله مع البيئة المحيطة به ، وهي صورة صادقة عن روح التحدي وإثبات الذات و رغبة الإنسان الجزائري القديم في إنتاج حضارة تضاهي الحضارات القديمة المتزامنة له

3 - الشعور بحقيقة الوجود حفزت أفراد الأمة على تحقيق التنمية الحضارية في العصور القديمة لإثبات شخصيتهم و ذاتهم التاريخية و الحضارية ، و هي حجة دامغة على النضج الفكري النافي للمقولة الاستعمارية " أهل المنطقة خارج التاريخ " ، و هو الطموح نفسه وقتنا حاضرا .

4 - تقوية شخصية الأمة و المحافظة على هويتنا يتطلب تأسيس قاعدة حقيقة مرجعيتها الذات التاريخية و الحضارية ، و ترسيخها بين أفراد المجتمع ، لتكون صمام أمان من مؤثرات الانسلاخ المترتبة عن العولمة .

5 - هوية الأمة غير جامدة ، تتطور وتبني وفق المسيرة التاريخية والحضارية الطويلة بهدف حماية المكاسب و المصالح المشتركة داخل المجتمع .

6 - ضعف الذاكرة التاريخية و الحضارية للأمة يساعد على انحلال النسيج الاجتماعي و خلق جيل غير محصن فاقد للكثير من القيم الأساسية ناكر لذاتهم ، والأخطر انتشار روح الانهزامية وفقدان المناعة الحضارية و الاستسلام للواقع .

7 - الاهتمام بالذات التاريخية والحضارية يساهم في زيادة الاحساس والشعور بالانتماء ، مما يترتب عنه روح العطاء و الاخلاص اتجاه الأمة و الدفاع عن هويتها .

8 - تحقيق الارتقاء الحضاري للأمة أساسه الجهود المشتركة بين الأفراد بدءا بالتفكير السليم و الممارسة الحقيقية ، و صدق الاعتراف بهويتنا التاريخية والحضارية عن طريق الممارسة الفعلية في مختلف المستويات لضمان التميز بين الأمم .

المراجع:

¹ عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، ج 1 ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1992 ، ص ص 19 و 22 .

² أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1986 ، ص ص 59 و 60 .

³ عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة 1997 م ، ص 9 .

⁴ خالد بن عبد الله قاسم ، العولمة و أثرها على الهوية ، موقع الالكتروني " الاسلام اليوم " ، 29 / 05 / 2006 الموافق لـ : 02 جمادي الأول 1427 هـ .

⁵ سفيان ميمون ، إشكالية بناء الهوية الثقافية ، مجلة المعابر الإلكترونية ، 29 / 05 / 2010 م .

⁶ في الثقافة و الهوية .. تحديد الإشكالية (1) : www.elmohit.net/news

www.islamtoday.net/bohooth/artshow-86-7335.htm

⁷ سفيان ميمون ، مرجع سبق ذكره .

⁸ أندري جوليان شارل ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، ج 1 ، ترجمة : محمد مزالي و البشير بن سلامة الدار التونسية للنشر - تونس 1969

⁹ محمد الصغير غانم ، مواقع و حضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم ، دار الهدى - عين مليلة الجزائر 2003 ، ص 149 - 153 .

¹⁰ Camps . G .Les civilisations prehistoriques de l afrique du nord et du sahara eddoin . paris 1974 .P 219

¹¹ خليفة من عمارة ، لمحة عن الجنوب الغربي الأعلى ، ج1 ، ترجمة : بوداود عمير ، مكتبة جودي مسعود - عين الصفراء - النعامة - الجزائر (ب . ت) ، ص 5 - 7 .

¹² خليفة بن عمارة ، المرجع السابق ، ص 5 و 12 و 13 .

¹³ محمد الصغير غانم ، المرجع السابق ، ص 153 - 165 .

¹⁴ رأي الكاتب

¹⁵ محمد الصغير غانم ، المرجع السابق ، ص 153 - 165 .

¹⁶ رأي الكاتب